ميشيل جالي ــ كرامب

مفهوم البنية الذهنية في اعمال كلود ليفي ــ شتروس*

«... ما دامت الاثنولوجيا هي اولا وقبل كل شيء علم نفس»[1] ان هذا التعريف المقتبس من كتاب (الفكر المتوحش) يبرز وحده الاهمية التي يثيرها في اعمال ليفي ــ شتروس مفهوم البنية الذهنية، ولاشك ان المرء يمكن ان يثيره هذا التعريف الذي يشبه الاثنولوجيا[2]، بدراسة آليات الذهن، واذا صح ذلك فإن الاثنوغرافيا[3] تختص بدراسة المجتمعات القائمة. ويمكن أن نندهش كذلك من ان علم النفس سيقتصر على دراسة الوظائف (اللا واعية) للفكر غير ان اذا ما اعتُبرت الاثنولوجيا علم نفس، فمعنى ذلك ان على هذا العلم من بين علوم أخرى، كما يرى شتروس «ان يطور دراسة البنيات التحتية بشكل خاص». ومن هنا يبدو ان الاثنوغرافيا تبقى كشرط ضروري لامكانية قيام علم الاثنولوجيا نفسه، وبالاضافة إلى ذلك فان الصعوبات التي يمكن ان تثيرها فكرة قيام علم للاثنولوجيا كنظرية للبنيات الفوقية يعتمد طرحها كما يقول شتروس «على تنكر تام للمهمة التي اخذنا على عاتقنا القيام بها»

الحقيقة هي ان محتوى الجزئين الاولين من كتاب (الميتولوجيات) Mythologies يؤكد ذلك الترابط الذي يميز مشروع شتروس. يقول في كتابه (النيِّء والمطبوخ) Le cru et le cuit «انطلاقا من التجربة الاثنوغرافية، يتعلق الامر دائما بعملية جرد للنطاقات الذهنية Les enceintes mentales واخضاع المعطيات التي تبدو اعتباطية في إطار نظام، وبالتالي ادراك مستوى معين تبدو فيه الضرورة محاثية لاوهام الحرية»[4].

والواقع أن الاثنولوجيا هي في حد ذاتها اكثر من علم نفس، بل ربما منطق ايضا، امكن اعتبارها منطق ايضا اذا ما تمكن البحث في «الالزامات الذهنية» ان يصل بنا يوما ما الى الاقرار بان الفكر الاسطوري في حد ذاته منطق للكيفيات المحسوسة ومنطق للصور والاشكال. كيف يمكن لعالم النفس ان يقبل مثل هذا الموقف ؟ ومن ثم كيف يمكن تهدئة مشاعر القلق التي ستنتابه تجاه موقف شتروس ؟ فمن خلال كتاب (الميثولوجيات) تبدو لنا اذن الاثنولوجيا في شكل منطق. الا تتاكد هنا عودة شتروس الواضحة الى النزعة الكانطية ؟ ودراسة البنيات الذهنية، الا تلزمنا افتراض تمييز ضروري وملح بين ما يتعلق فقط بعلم النفس،

وما يتعلق بتحليل تراسيند نطالي (متعاني) كانطي ؟ مهما كان الامر فان حقيقة المشروع الاثنولوجي لليفي ــ شتروس لا يمكن ان تنكشف لنا الا اذا فهمنا الاهمية المتميزة التي تحظى بها البنيات الذهنية. ونود في البداية ان نتساءل اذا كانت هناك فعلا بالنسبة للفكر «الزامات ذهنية» Contraintes mentales فما هي الشروط التي تتيح امكانية قيام علم للاثنولوجيا ؟ وهل هناك بالنسبة للعالم الاثنولوجي مشكلة منهج ام مشكلة تحديد الموضوع المدروس ؟ كيف يمكن اذن ان ندرك علاقة المنهج بالواقع المدروس ؟ ان هذه التساؤلات تتجذر الى مستوى اعمق عندما نتساءل : ما هي طبيعة الذهن ؟

اذا كانت الاثنولوجيا هي علم للنطاقات الذهنية، فان الاجابة عن السؤال المطروح ستحدد بدقة قانون الثقافة. ستقل دون شك حدة هذه الصعوبات اذا ما تابعنا عمل ليفي ــ شتروس. لكن صعوبات اخرى قد تكون ذات طابع فلسفي يمكن ان تظهر، ومن ثم ستكون اقل اهمية. ومن ذلك سيتولد عن هذه الصعوبات ادعاء آخر وهو الى اي حد يمكن ان نقبل من العالم الاثنولوجي ان يتيح لنفسه ــ كما يقول شتروس ــ «الاصطياد في مناطق الصيد الفلسفية المحروسة»(5)

شروط امكانية قيام علم للاثنولوجيا

ان هدف الاثنولوجيا هو ان تكشف ــ من وراء التمثلات الشعورية الواعية التي يعايشها ويتعاطاها الناس من ثقافاتهم ــ عن الخواص الخفية (اللا واعية) للفكر. ان المؤرخ يلتزم بدراسة الظواهر والتجليات الواعية وللوقائع الاجتماعية. ان (الانثروبولوجيا البنيوية) ترى في هذا التمييز معيارا للفصل والتكامل بين الاثنولوجيا والتاريخ. فليفي ــ شتروس يؤول هنا تاويلا خاصا اطروحة ماركس التي ترى «ان الناس هم الذين يصنعون تاريخهم، لكن دون ان يعوا انهم يفعلون ذلك» وهذه اشارة للطريق المزدوجة الاتجاه : التاريخي والاثنولوجي.

ان اعتبار الاثنولوجيا بمثابة علم للنفس هو تحديد غير كاف : إن الامر يتعلق بشكل ادق بـ (بسيكولوجيا اللاوعي) نود هنا ان نتعرض للاسباب التي يبدو لنا انها تبرر هذا التاكيد يلزمنا في البداية ان نسترجع ذلك المقياس الثقافي الذي يذكر به ليفي شتروس في كتابه (المدارات الحزينة) فهو اذا كان يضع موضع تساؤل تلك التناقضات العقيمة للفكر الجامعي التي تحدث قطيعة بين العقلاني واللا عقلاني. دون ادراك اي امل في التقارب والتصالح بينهما. واذا كان كذلك يرفض (حالة الغموض) البرغسونية التي تفصل المعنى والدلالة عن اللغة فذلك لكي يدرك جيدا بان مقولة الدال تتجاوز حدود الوعي وان العقلاني لا يمكن ان ينحصر في دائرة العقل الشفاف.

ان دروس ونظريات ماركس وفرويد لا يمكنها الا ان تلزم اثنلوجي المستقبل بالسير في هذه الطريق[6] فخلف التفكك الواضح للفردي المعاش، وخلف التنوع الاعتباطي للوقائع الاجتماعية يوجد هناك نظام (بنية) خفي يجب الكشف عنه واظهاره. سيكون من المغري الاعتقاد بان ميل الاركيولوجيا (علم الآثار) يعد مؤشرا على المهمة الاثنولوجية. هذا اذا كان ليفي ــ شتروس لا يفضل ان يرى في علم الجيولوجيا قانونا او معيار لكل منهج يسعى لكشف ما هو خفي في الاعماق يبقى انه لكي نؤسس علما، فان نقدا أوليا للظواهر المحسوسة والاوهام المباشرة يصبح ضروريا، لكنه في حد ذاته غير كاف يجب على الباحث كذلك ان يمتلك منهجا، وان يحدد ما سيقصده بالواقع العلمي. ان الحقيقة التي ترى بان منهج الاثنولوجيا مستوحى اساسا من مناهج اللسنيات هي شيء مؤكد ومعروف وليس بحاجة الى الحاح. الا انه من المناسب الاشارة الى انه ضمن طبيعة الموضوع اللسني تستمد الاثنولوجيا تاكيداتها. اي من خلال اللغة التي تعد ظاهرة اجتماعية تتواجد بتواجد المجتمع نفسه. ان الذات المتكلمة تجهل القوانين الصوتية والنحوية. وهكذا فان الاثنولوجيا تجد في اللغة كواقعة اجتماعية نموذجا ممتازا لموضوعها الخاص.

ان ليفي ــ شتروس في كتابه (البنيات الأولية للقرابة) يماثل بين حدود القرابة العائلية وبين الوحدات (الفونيمات) اللغوية Phonémes لكي يخضعها لنفس المعالجة الصورية فاذا كانت اللغة تؤكد بواسطة العلامات Signes التواصل بين اعضاء الفئة الاجتماعية، فان نسق القرابة يمكن هو ايضا من التواصل الاجتماعي بواسطة تبادل النساء. فالتماثل بين النسقين مثبت، ومن المؤكد ان قوانين العمل بالنسبة للنسقين مهيأة على مستوى الفكر الواعي. فهذا الاصل المشترك بين العلمين (علم اللغة والاثنولوجيا) يؤسس نوعا من التماثل في الموضوعات الذي يؤسس بدوره تماثلا في المناهج.

ان تحليل الفكر الاسطوري ــ في نظر شتروس ــ هو الذي يبين بوضوح اتصال الهدف بين العلمين. فالذات المتكلمة لا تستطيع في محاولتها تطبيق القواعد والقوانين اللغوية عن وعي دون ان تتفادى خطر التلعثم. ان الفكر الاسطوري لا يمكنه ان يعي آلياته الخفية دون ان يهدم ذلك الترابط الذي يميز مضامينه الخاصة، فهو لا يمكن ان يمتلك من الواقع اللسني والاسطوري الا وعيا ارتداديا rétroactive وغريبا، فالعلم هو وعي بموضوع ينفلت من ذاته فيجب ان تركز اهتمامنا حول هذه النقطة بشكل خاص.

ان تاسيس الاثنولوجيا كعلم يتطلب اولا تحديدا دقيقا للموضوع المدروس، وكذا للشروط التي تمكن من تطبيق منهج علمي على هذا الموضوع سيتعلق الامر بالاضافة الى ما ذكر بالمحافظة على ثنائية الذات العارضة والموضوع الملاحظ التي تميز العلوم الطبيعية، ومن تم

على علم الاثنولوجيا ان ينقل هذه الثنائية الى مجال الظاهرة الانسانية اذا كانت تامل في الوصول الى القانون العلمي، ومن هنا نفهم لماذا تسعى الاثنولوجيا الى دراسة البنيات الذهنية اللاواعية[7] واذا صح ذلك فانها في بحثها عن العلمية، مدعوة بالضرورة الى ان تبطل نهائيا ذلك التمييز التقليدي بين ما هو (انساني) وما هو (طبيعي) ان الوعي العلمي وموضوعه البنيات الذهنية يتحملان افقارا مشتركا : فالثاني (اي الموضوع) ينسلخ من التجربة المعاشة، اما الاول (اي الوعي العلمي) فيتخلى عن امتيازات الوعي التاملي. يقول شتروس : «ان الوعي يبدو كعدو خفي للعلوم الانسانية خلف المظهر المزدوج للوعي التلقائي المحايث للموضوع الملاحظ، ووعي متامل ـــ وعي الوعي ـــ لدى العالم»[8] يبدو في نهاية هذا التحليل ان الاثنولوجيا تتخذ موضوعا لها هو البنيات الذهنية التي ليست لها علاقة مباشرة مع الواقع التجريبي القابل للملاحظة. ان موضوع الاثنولوجيا هو مجموعة اعمال ونشاطات الذهن. او الفكر المعبر عنه في نتاجاته. انه بالتالي الفكر المتحقق موضوعيا[9] La pensée objectivée.

ان المنهج البنيوي عندما يبعد من اهتمامه (وعي الفكر) لكي يجعل موضوعه قابلا للمعالجة العلمية، فهو يتخذ له موضوعا يمكنه من الآن فصاعدا من ان يطور آلياته في استقلال عن الذوات المجربة. فالموضوع، وكما تتطلب ضرورات المنهج غير قابل تماما للفهم الا على المستوى التزامني Synchronique. اي ان المهم ليس هو الزمان، فابعاد وعي الفكر ليس الا وسيلة من وسائل ابعاد الزمانية Temporalité ان كون عنصر اللاوعي لا يعود بالضرورة الى الذاتية يطرح مشكلة سنتناولها فيما بعد. فقد اردنا فقط الاشارة هنا الى انه لكي يتم تاسيس علم الاثنولوجيا يصير من الضروري ابعاد عنصر الوعي والتسليم بخاصية اللاوعي التي تميز البنيات الذهنية، وهذا يعني بوضوح اعطاء الامكانية المنهجية لمعالجتها بشكل تزامني لكي تستخرج منها الخصائص الكلية والضرورية اذا صح فعلا انه لا توجد ثمة ضرورة الا للمستوى البنيوي.

من المنهج الى الواقع

لكي تؤسس الاثنولوجيا نظامها الخاص يتقيد العالم الاثنولوجي بضرورات والزامات ابستمولوجية، حيث يلزم ان تكشف بعض خصائص الموضوع ـــ الذي هو البنيات الذهنية ـــ اذا اريد اظهار العلاقة التي تربط بين المنهج والواقع المدروس.

ان المنهج البنيوي ـــ ومن خلال كتاب (البنيات الاولية للقرابة) حتى كتاب (الميتولوجيات) ـــ يحاول ان يجعل انساق الفكر واضحة. ويبدو ان هذه الانساق تظهر نشاطا وفاعلية مماثلة للعمليات التي يمارسها المنهج نفسه. ان الفكر المتوحش فكر مصنف

Classificateur ومبدأ التصنيف يكمن في كشف التعارضات والتقابلات، وفي وضع مجموعة من الحدود المتماثلة، ونشاط التنصيف هذا يتوقف عندما يعتبر النسق مستوفيا لمجال الدلالة. وفضلا عن ابداع الفكر المتوحش لانساق التصنيف والدلالة. فانه يسلم على غرار المنهج البنيوي بمعادلة الموضوع والتزامن. واذا لم يكشف المعنى الا بواسطة النسق فاننا ندرك بان الفكر المتوحش يظهر نفورا واضحا من التعاقب Diachronie[10]. اذا قبلنا بالاضافة الى ما سبق ان المنهج البنيوي حتى يكون قابلا للتطبيق يتطلب الانفصال عن الواقع المباشر، فاننا نصادف في كتاب (الميثولوجيات) مستوى معين يبدو فيه امتزاج المنهج بالواقع. الم يقل شتروس في كتابه هذا بانه بالنسبة للفكر الاسطوري فان المتصل مرادف للمضطرب، وان كل جهد هذا الفكر يبدو انه يستفيد في عملية الانتقال انتقالا سيكون بالنسبة له من المستحيل التفكير في التعارض والتماثل بين النظام الاجتماعي والنظام الكوني في الوقت نفسه ؟

لكي نبرز معنى هذه المطابقة بين المنهج والواقع المدروس، تجب الاشارة الى انه على المستوى الابستمولوجي اذا كان منهج العالم الاثنولوجي يكمن في كشف البنيات، فان عمل الذهن في نشاطه يكمن في تهييء وتشكيل البنيات. ان اختيار الفكر المتوحش لا يمكن ان يكون من وجهة النظر هذه مقصودا، فمن خلال الفكر الاسطوري فان الامر يتعلق — في نظر شتروس — باي شكل من اشكال الفكر الممكنة. يقول شتروس : «اذا كان النشاط اللاواعي للذهن البشري — كما نعتقد — يكمن من فرض اشكال على محتوى أو مضمون فكري معين. وان كانت هذه الاشكال هي اساسا نفس الاشكال بالنسبة لجميع الذهنيات سواء منها القديمة او الحديثة، البدائية او المتحضرة»[11]

من هنا ندرك ان العالم الاثنولوجي يستطيع ان يبرهن على هذه الموضوعية النوعية والتي تكمن في الانسلاخ عن المقولات العقلية من ثقافتها الخاصة لكي تفهم مقولات اخرى غريبة عنها. والواقع ان البنيات التي ينتمي إليها العالم الاثنولوجي، وكذا البنيات التي يتخذها موضوعا للدراسة لها نفس الطبيعة العامة. ان حقيقة كون المنهج البنيوي يمكنه ان يجعل البنيات الذهنية واضحة لن تدهشنا نظرا لان ميزة البنيات الذهنية هي اذا امكن القول، تكوين وتشكيل البنيات.

ونبقى دائما في اطار تطابق المنهج مع الموضوع المدروس : ان التطابق الابستمولوجي يتجذر الى مستوى التماثل الانطولوجي يقول شتروش : «ان التكامل المنهجي في العمق والشكل يعكس بطريقته الخاصة تكاملا اكثر، انه التكامل بين المنهج والواقع»[12] واذا نحن واصلنا اتباع نفس الخيط الرابط، يلزمنا مواجهة مسألة الشروط التي تتيح امكانية هذه المطابقة. ذلك انه لكي تكون علاقة المنهج مع الموضوع علاقة قائمة على التماثل الاجرائي

للذهن البشري الذي ينعكس في النشاط العلمي، كما ينعكس في الفكر المعتبر كموضوع، لا يكفي ذلك لتفسير امكانية قيام العلم نفسه. كيف نفهم انشطار الذهن هذا الذي يتضمنه النشاط العلمي للعالم الاثنولوجي ؟ واذا كان موضوع الاثنولوجي هو مجموع البنيات الذهنية اللا واعية فكيف تكون وقفة الوعي هذه التي يقفها العالم الاثنولوجي ممكنة ؟ الا يصير وعي الذهن هنا شيئا غريبا عن الوعي نفسه ؟

اننا ندرك هنا بان الاثنولوجي عند اكتشافه للبنيات الخفية يعمل انطلاقا من النتاجات الموضوعية للفكر وفق منهج يمكن ان نصفه بكونه منهجا قديا بالمعنى الكانطي. يتعلق الامر انطلاقا من التحليل النسقي باعمال ذهن لا يعرف بشكل تلقائي انها اعماله، والارتفاع نحو النشاط اللاواعي الذي تستمد منه تلك الاعمال مصدرها، ومن هنا ندرك انه اذا اعتبرت الاثنولوجيا بمثابة وعي ذاتي للذهن، فهي لا تصادف الا صعوبة مألوفة وهي هيمنة الفلسفات التاملية : اي امكانية الوعي الفلسفي القادر على عرض عمليات ذهن يجهل نفسه تحت منظار الذات العارفة، وهذا يعني في نهاية التحليل انه بدون التامل الفلسفي يظل هذا الموضوع (اي البنية الذهنية) مجهولا.

ان التوازي بين المنهج البنيوي والمنهج التراسند نطالي الكانطي يختبر مع ذلك حدوده بسرعة. وذلك نظرا لان الفلسفة التراسند نطالية الكانطية تسلم بدورها بان الذهن غير واع بنشاطه المركب، لكن الفرق بين المنهجين يكمن في ان هذا الشيء اللاواعي لا ينتمي مع ذلك في نظر الكانطية — إلى الموضوع بل الى الذات، وبهذا الاعتبار تظل الذاتية الترانسند نطالية الشرط الضروري الذي لابد منه لكل نظام او بناء، لانها هي التي تكسب البنيات الذهنية وحدها وضرورتها، والحالة هذه ان ليفي — شتروس يستبعد الذاتية لاسباب تبدو لاول وهلة ذات طابع ابستمولوجي. ان هذا الرفض للذاتية الترانسند نطالية يبدو في العمق انه يستند الى أسباب نظرية. فابتداء من كتاب (المدارات الحزينة) Les tristes tropiques فان الفكر قد حدد في الواقع كموضوع من موضوعات هذا العالم، فهو لا يمكن ان يكون من طبيعة اخرى. ولم يفتأ ليفي — شتروس من تطوير وجهة النظر الهامة هذه. فاذا استطاع العالم الاثنولوجي ان يدرس الفكر المتحقق موضوعيا اي اعتباره كموضوع، فان الفكر هنا اصبح هو نفسه موضوعا للدراسة والبحث. ينجم عن ذلك نتيجة هامة، وهي انه اذا كان الذهن هو مجرد شيء من بين الاشياء، فانه لا يمكن ان يخضع الا لقوانين ضرورية كتلك التي تخضع لها الاشياء، ولا شيء في هذا المجال اكثر دلالة من تحليل الفكر الاسطوري، حتى ولو كان الذهن فيه يتعاطى — كما يبدو في الظاهر لنزوات من التصور والتلقائية المبدعة الخلاقة. ان الفكر الاسطوري — في نظر شتروس — يكشف عن آليات دقيقة وحتمية مطلقة. فعندما يعتقد ان الذهن محرر من المهام الموضوعية، وعندما يستقل — في الظاهر — عن موضوعات

الطبيعية يُظهر بشكل افضل طبيعته كموضوع. — ومن هنا فان مفارقة الاثنولوجيا — وعي الافكار اللاواعية — تجد حلها فوعي العالم الاثنولوجي ليست له هذه الميزة التي تجعله معرفة فكر بدونها يبقى محكوما عليه بالغموض، ذلك انه بتأثير من الفكر اللاواعي تصل الاثنولوجيا الى فكرها الخاص. ومن المؤكد هنا ان المنهج البنيوي ليس ممكنا الا اذا كان الفكر ذو البنيات المعتبرة كموضوع، يتطلب هذا المنهج. فهذه نقطة جوهرية حيث يتجلى من خلالها تطابق المنهج مع الواقع المدروس.

غير انه، وبالمقابل، فان الفكر اللاواعي يأخذ شكله بواسطة الفكر الاثنولوجي نفسه.

من المؤكد انه اذا ما حدد النتاج العلمي الذي يمكن ان نضع فيه ليفي — شتروس فان المهم يكمن في الوصول الى تفهم ذكي لاليات الفكر، ايا كان الاعتبار الذي يمكن ان يُعطى عند اكتشافها لفكر اثنولوجي او للفكر المدروس. ومع ذلك فان هذا الاحتراس المنهجي لا يبدو انه يوضح تماما تلك المفارقة، ذلك انه يلزمنا ايضا ان نفهم كيف تصل الاثنولوجيا الى امتلاك وعي بتلك الاليات التي لا تعرف ؟ وانه اذا كانت طبيعة الذهن طبيعة لا واعية فكيف يكون التقاء فكرين[13] قادرا على ايضاح وبيان طبيعة الذهن نفسه ؟ او بعبارة ادق كيف يمكن للفكر ان يفكر في ذاته ؟

التماثل والجدل

ان دراسة البنيات الذهنية تكشف عن ان عمل الذهن خاضع لنفس القوانين التي تخضع لها الاشياء. فالاثنولوجيا تؤكد بطرقها الخاصة من وراء اوهام الحرية ان الذهن لا يمكن ان يكون مع ذلك وهما داخل الوهم. ان ما يجب ان نفهمه من الآن فصاعدا هو ان الذهن اصبح مجرد موضوع من بين الموضوعات، وانه يعكس الاشياء في شكل تمثلات. فالاجابة عن هذه القضية تعني بالضرورة مواجهة العلاقات بين الثقافة والطبيعة في البداية يظهر انه على المستوى المنهجي اذا كانت البنيات الذهنية مماثلة للبنيات الطبيعية، فان الاثنولوجيا لا يمكن ان تكون علما مستقلا.. ويلزمها لكي تتمكن يوما ما من الخروج من عصر ما قبل التاريخ. ان تكشف عن حقيقتها الخاصة ضمن علوم الطبيعة. فمن المؤكد، كما يرى شتروس، انه ضمن (الفكر المتوحش) ترتكز الاثنولوجيا على استيعاب التنوع التجريبي للثقافات ضمن ثقافة انسانية عامة. كما تسعى الى التقليل من التعدد الظاهر للبنيات الذهنية في اطار الذهن البشري العام[14] : انه مسعى اعدادي نظرا لان الامر يتعلق في النهاية بفهم الذهن في شروطه الفيزيائية والكيميائية الممكنة ومن ثم كما يرى شتروس «ارجاع الثقافة الى الطبيعة».

ـ وحدة وشمولية البنيات الذهنية تتجذر في وحدة العالم الطبيعي. فاذا امكن في يوم ما وضع هذا الاصل المشترك العام، فسوف ينجم عن ذلك ان العلوم الانسانية ستندمج ضمن منظومة العلوم الطبيعية. في الحالة التي حاولنا فيها ان نوضح بان المنهج البنيوي مطابق للواقع المدروس، فان التاكيد على حقيقة كون العلوم الانسانية تقع في مستوى العلوم الطبيعية يتضمن بالضرورة ان دراسة البنيات الذهنية لا يمكن ان تكون دراسة منفصلة في هذه النقطة بالذات تصادف الاثنولوجيا صعوبة العلاقة بين البنيات الفوقية والبنيات التحتية. فهذا ادعاء له ما يبرره نظرا لان ليفي ــ شتروس يعرف الاثنولوجيا كعلم للبنيات الفوقية محتفظة للاثنوغرافيا والتاريخ بدراسة البنيات التحتية.

كيف يمكن للذهن ــ كشيء من بين الاشياء ــ ان يفكر في الوسط الطبيعي والاجتماعي الذي هو مندمج فيه ؟ ان النشاط التصنيفي للفكر يتجلى على مستويين : مستوى التفكير في العالم الطبيعي، ومستوى التفكير في المجتمع، ففي الطبيعة يكشف الذهن عن نموذج من التنوع العيني المحسوس والمنظم في شكل مجموعات. فالتصنيفات وتنظيم الوظائف الاجتماعية يعكس بشكل متماثل التصنيفات الطبيعية. فالفكر الاسطوري بربطه النظام الكوني الطبيعي بالنظام الثقافي يُظهر تماثل الذهن بالطبيعة. ان النشاط الاساسي للذهن هو الاعادة والتكرار : الا يتجلى هنا اذن شرط موضوعية الفكر ؟ فالفكر المتوحش يعكس مجموعة من الانواع الطبيعية لانها تزوده بنموذج لـ «موضوعية محتملة».

ان الفكر الاسطوري يلعب دور الاستعارة ذلك لان الاستعارة تعني حدسيا تماثل البنيات الطبيعية والبنيات الثقافية. ان الذهن يعكس الطبيعة لانه هو ذاته طبيعة.

هناك شيء جذري واساسي نؤكده هنا، كما يفعل ليفي ــ شتروس الا وهو «الاولوية التامة للبنيات التحتية»[15]. لكن قبل ان نوضح بعض المشاكل التي تثيرها هذه النزعة الراديكالية، يمكن ان نشير الى ان هناك نوعا من الالتباس والغموض يظل موجودا في اعمال ليفي ــ شتروس. كيف يمكن التاكيد على اولوية البنيات التحتية والادعاء فضلا عن ذلك بان المجتمعات «تختار» ان تعبر عن افكارها بواسطة التاريخ، او بالمقابل تسعى بواسطة معايشتها لمؤسسات اجتماعية ملائمة «الى ان تبطل بشكل اوتوماتيكي تقريبا المفعول الذي يمكن ان تحدثه العوامل التاريخية على توازنها واستمرارها»[16]. كيف يمكن ان تكون طبيعة هذا الاختيار الاساسي ضمن نظرية تؤكد مع ذلك ان البنيات الذهنية خاضعة لحتمية مطلقة ؟

كيف يمكن في النهاية ان نوفق بين اولوية البنيات التحتية مع التاكيد انه لا فائدة من البحث في الاساطير لعزل نواة دلالية متميزة ؟ ان المرء يدرك عند الاشارة الى ما يسمى بـ (البنية المغلفة للاسطورة) وخاصيتها (المتناهية) ان ليفي شتروس يرفض تلك التفسيرات المختصرة، او ذات النزعة الشمولية التي قدمها الميثولوجيون الاوائل. لكن يبقى انه اذا كان

معنى الاسطورة يؤدي دائما الى معنى آخر، وذلك بشكل لانهائي[17] يمكن التساؤل عما اذا كانت الاثنولوجيا تحدد شكل خفي امكانية استقلالها وعما اذا كان القول باولوية البنيات التحية لايزال ذا معنى.

يجيب ليفي شتروس عن هذه الصعوبة فيقول : «اذا ما تساءل المرء : الى اي مدلول نهائي ترد هذه الدلالات التي تعني احداها الاخرى : فان الاجابة الوحيدة التي يقترحها هذا المؤلف هي ان الاساطير تدل على الذهن الذي يهيئها بواسطة العالم الطبيعي الذي يعد هو نفسه (اي الذهن) جزء منه»[18] ها نحن وصلنا الى نقطة نعتقد انها هامة جدا. اذا كانت الاساطير تعني الذهن الذي يعني بدوره الطبيعة بقي علينا ان نفهم ضمن اية شروط يمكن ان يكون الذهن رمزا للاشياء ؟

اذا سلمنا بان الفكر الاسطوري ـــ الذي يلزم ان نذكر بان الياته كلية وشاملة ـــ يمارس نشاطه من خلال تعارض تصنيفات منظمة وانه لا يمكن او يوفق بين الانفصال عن الواقع وتماثل هذه التصنيفات الا اذا ربط وظيفة التمييز هذه بوظيفة الوساطة كما يبدو لنا ذلك في بحثه عن عوامل قابلة لان تأخذ في حسبانها الانتقال من الطبيعة الى الثقافة. ان الاسطورة لكي تؤسس الثقافة يجب ان تصدر مما هو طبيعي، وان تجد من اجل ذلك حدا وسيطا يتجاوز وينفي في الوقت نفسه الخاصية الطبيعية البسيطة وان تظهر في النهاية بنيتها الجدلية.

ومن هنا يبدو أنه لكي تتضح تماما البنيات الذهنية من الضروري إعطاء قانون للسلبية Statut à la négativité . ولكن كيف يمكن الوصول إلى ذلك إذا كانت الطبيعة هي التي تنعكس في الذهن، وإذا كان دور الفكر هو الإعادة والتكرار ؟ ألا يجب القبول أنه اذا كان الذهن صادراً عن الطبيعة، ان هذه الأخيرة بدورها يمكن ان تنفى في الذهن ؟ يبقى علينا أن نفهم كيف تصبح عمليات الذهن ممكنة بواسطة النشاط الملموس للانسان في العالم الطبيعي. يجب إذن أن نقبل بالضرورة ضمن النشاط الإنساني معنى آخر وهو هدم ملايير البنيات[19] ومن ثم تأسيس البعد التعاقبي Diachronique إن ليفى ـــ شتروس يهتم دون شك بتبيان أن أي نظرية تربط بين مستوى الممارسة La praxis ومستوى التطبيقات العملية محكوم عليها بأن تقلل من قيمة ووزن العمليات التصورية، وإعطاء الأهمية القصوى للبنيات التحتية ينتهي إلى جعل البنيات الفوقية نفسها غامضة وغير قابلة للفهم. ذلك أن الهدف البعيد والاعمق للعلوم الإنسانية هو أن تذيب النشاط الإنساني في الطبيعة والممارسة هذه المرة، هي التي لن تفهم أبدا، إذا ما انحصرت في نشاط مدمر. فهناك إذن ـــ إذا صح التعبير ـــ نوع من السلبية في الممارسة، غير أنها في الحقيقة لا تشكل شيئا.

إن أدراكنا بأن الذهن ـــ كشيء من بين الأشياء ـــ يستطيع أن يتمثلها، وفهمنا بأن الخطاطات التصويرية تشكل عمليات وسيطة يتطلب على الأقل ـــ إذا أريد تحليل شروط

إمكانيات الذهن ــ تاريخا جدليا للطبيعة، غير أنه حسب وجهة نظر شتروس فان الانساق التصورية تنفر من المجال التعاقبي (الدياكروني) ومن ثم فإن ضمن هذه الأنساق تنعكس الطبيعة. وهنا لا يؤكد بوضوح بأن الطبيعة هي التي تحكم الهوية، نتذكر هنا أيضا مسألة مطابقة المنهج للواقع التي تعرضنا لها آنفا. فلاحظ بأن المنهج البنيوي قد أسس جيدا الموضوع المطلوب بواسطة تجربته الخاصة. ويطابق المنهج الذي يعرض البنيات في المجال التزامني طبيعة محددة بالهوية واليها. إن التماثل بين البنيات الذهنية والبنيات الطبيعية ربما يكشف ــ إذا ما قصدنا بذلك الغموض الخفي كشروط عمل الفكر وكذا الموضوع الذي يسعى إلى إمساكه ــ عن مغالطة ترانسند نطالية.

إن إعتبار البعد التاريخي (الدياكروني) غير قادر على عرض وتحليل نوعية الممارسة يبدو جليا عندما يعترف شتروس للتاريخ بالقدرة على إنجاز بعض البنيات وإخراجها إلى حيز الوجود. والحالة هذه إن هذا الإنجاز يقوم على «احتمال لا يمكن إبعاده»[20] صحيح أنه بواسطة التاريخ ينجز البنيات، لكن التاريخ نفسه لا يحتوي على عوامل وأسباب ظهورها. وهكذا فإن الانتقال من الفكر الأسطوري إلى الفكر الفلسفي ثم إلى الفكر العلمي، والذي حدث مع مطلع الحضارة الغربية، في الوقت الذي لم تعرف فيه ذلك الثقافات الامريكية الجنوبية، هذا الانتقال لم يكن متضمنا بالضرورة في بنية الذهن. إن ليفي ــ شتروس يرفض هنا موقف الفلاسفة الذين يسلمون بتطور حتمي لذهن إنساني ينمي بنفسه وسائل فطرية ممتلكة منذ القدم. كذلك فإن تحولات الذهن لا يمكن أن تحدث إلا بالإلتقاء بتاريخ لا يعرف بنفسه. اذا كان يبدو هنا أن ليفي شتروس يستعيد دروس النزعة الوضعية عن «مقالة حول أصل وأسس عدم المساواة بين البشر» لجان جاك روسو ــ الذي يؤكد أن الإنسان لم ينبثق من الواقع من الطبيعة إلا بفعل عوامل وأسباب مفاجئة وطارئة كان من الممكن ألا تحدث (اي بفعل المصادفة) ــ يبقى أن شتروس يبتر هذا المعنى فيرى : أن كون الإنسان منحدر من الطبيعة دون أن يكون هذا الانبثاق قائم على إنجاز مخطط ما خفي، لا يتضمن القول، أنه عندما أصبح الإنسان بواسطة نشاطه الخاص كائنا ثقافيا، إن تطور النوع لن يخضع من الآن فصاعدا لقوانين ضرورية. غير أنه ضمن الممارسة نفسها يلزم أن يكشف عن أسباب هذه الضرورة، والاعتراف في النهاية بأن الإنسان حيوان تاريخي. إذا كان تحول البنيات الذهنية يحدث تحت تأثير «كل أنواع التاثيرات الخارجية»[21] التي تلعب فيها المصادفة والاحتمال دورها، فانه من الصعب التاكيد بأن الناس هم الذين يصنعون تاريخهم دون وعي منهم. ويبدو جيدا أنه لكي نتأمل العلاقة بين البنيات الذهنية والبنيات الطبيعية، وكذا علاقة الثقافة بالطبيعة يجب أن نعلم بأن المنهج البنيوي لا يمكن أن يقوم بمهمته إلا من خلال حتمية أحادية الجانب. ونود أن نشير بأن المنهج البنيوي عندما يستخدم التحليل الدلالي فهو يكشف بوضوح عن ذلك القلق الذي يلزم الفكر الأسطوري. إن ما يحاول الإنسان التفكير

فيه مستعملا أساطير وأنساق تصنيفية معينة يعني أن الثقافة ليست صادرة عن الطبيعة، كما لو كانت الظاهرة الثقافية لا يمكنها أن تنعكس في الفكر ألا في شكل تشويه او مسخ للطبيعة. إن العالم الإثنولوجي في إمكانه دون شك تذكيرنا بأن الأمر يتعلق بنماذج واعية تتعاطاها ثقافة معينة للتعبير عن نفسها وأن هذه النماذج الواعية وهمية. ولكن إذا أردنا الاستعانة بنظرية متكاملة عن تكون البنيات الفوقية. ألا يجب أن نعرض بالتحليل لهذا الذي يسميه شتروس بالوهم ؟ وهل يمكن أن نفسر بأن الثقافة تترجم نفسها كتشويه للطبيعة، إذا كانت الحقيقة الخفية (اللاواعية) هي أن تستوعب في الطبيعة ؟

ثمة مقولة أخرى للفكر الأسطوري ـــ ونذكر هنا بأننا مدنيون بهذا الصدد للتحليل البنيوي حول هذه النقطة ـــ وهي أن كل ثقافة قد تفننت في أن ترجع إلى حكم الطبيعة جميع عناصرها سواء تلك التي لها فائدة في ابعادها أو في استغلالها. فاذا كانت الأساطير تقول بالدونية والنقص أي تعني هنا طبيعة المرأة، فذلك لكي تبرر المكانة والمصير الذي يخصص لمجتمع الرجال. ففي إحدى فِقرات كتاب (الميتولوجيات) يشير ليفي شتروس إلى أن استعباد النساء يتيح إمكانية ظهور كل طرق استغلال الإنسان للإنسان. يتعلق الأمر جدا هذه المرة بنموذج لا واع حيث أن مدلوله العميق يفلت من المجتمع الذي يعطيه فرصه الظهور والنشأة دون وعي منه. غير أنه بهذا الاعتبار يصير اللاوعي هو الموضوع المفضل من طرف الإثنولوجيا. ألا نجد أنفسنا هنا مع نواة دلالية متميزة للفكر الأسطوري. يلزم أن نذكر في الختام ان اي تاويل للمدلول الخفي للفكر الأسطوري ـــ الذي لا يمكنه اهمال بعض الموضوعات المألوفة (كاصل العائلة والملكية والدولة)[22] يجد سببه النهائي في التفسير التعاقبي التاريخي. ان ليفي شتروس يؤكد دون شك في كتابه (الانثروبولوجيا البنيوية) ان التمييز بين الاثنولوجيا والتاريخ يكمن في ان هذا الأخير يسعى الى دراسة انماط التعبير الواعية، اما الاثنولوجيا فـ «تركز على الشروط اللاواعية للحياة الاجتماعية» غير انه يبدو في النهاية ان الخيط الرابط بالنسبة للعالم الاثنولوجي يظل كامنا في تفهمه العميق للبعد التاريخي[23] .

ترجمة العمارتي جواد
مراجعة محمد سبيلا

هوامش :

* هذه ترجمة لمقال نشر بمجلة الفكر (La pensée) الفرنسية عدد 135 اكتوبر 1967 وهو من أهم النصوص النقدية التي تناولت اعمال شتروس فهو ذو اهمية مزدوجة : فهو من جهة يعد نصا تركيبيا يلقي الاضواء على أهم المبادىء المنهجية والمعرفية والفلسفية لبنيوية شتروس. ومن جهة أخرى ينطلق فيه كاتبه من منطق تاريخي نقدي لاعمال شتروس. ولا انسى ان اتوجه هنا باحر عبارات الامتنان والشكر الى الاستاذ محمد سبيلا على تفضله بمراجعة هذا النص وابداء ملاحظاته القيمة بصدده وعلى تشجيعه لي بمحاولة نشره.

(1) يقتبس الكاتب قولة شتروس هذه من كتاب (الفكر المتوحش) وحتى يتضح للقارىء السياق الذي اتت فيه، نرى من الافضل ادراجها كاملة. وهي تبين مشروع شتروس بإيجاز : يقول : «اذا كان لنا نحن ان نأمل في عمل شيء، فما ذلك سوى الاسهام في وضع نظرية (البنيات الفوقية) التي كان ماركس قد رسم خطوطها الاولية، مع الاحتفاظ للتاريخ والعلوم المساعدة له من ديموغرافيا وتكنولوجيا وجغرافية تاريخية بحق تطوير البنيات التحتية. وهي الدراسة التي لا يمكن ان تدخل في اختصاصنا نحن اساسا مادامت الاثنولوجيا هي أولا وقبل كل شيء علم نفس»

(2) الاثنولوجيا تعريب لـ Ethnologie المركبة في Ethnos (شعب او سلالة) و Logos (علم). وهي فرع من العلوم الانسانية يعرف في العربية بـ (علم السلالات البشرية) يتناول بالبحث مجمل اصول وطبائع كل سلالة وذلك لوضع الخطوط العامة لبنية المجتمعات وتطورها.

(3) الاثنوغرافيا تعريب لـ Ethnographie المركبة في Ethons (سلالة) و Graphé (وصف) تعد فرعا من العلوم الانسانية يتناول دراسة السلالات البشرية دراسة وصفية، تصف خصائص الشعوب والسلالات. ـــ الترجم

(4) ليفي ـــ شتروس : النيء والمطبوخ ص 18

(5) نفس المرجع السابق نفس الصفحة

(6) يقول ليفي ـــ شتروس في (المدارات الحزينة) : «بدا لي ان الماركسية في مستوى آخر من مستويات الواقع تنهج نفس منهج الجيولوجيا والتحليل النفسي، والمقصود بالماركسية هنا الماركسية كما وضعها مؤسسها : ان نفهم في نظر هذه الميادين الثلاث، معناه ان نرجع واقعا الى واقع آخر. اذ ليس الواقع الحقيقي هو ذلك الواقع الاكثر انجلاء وبروزا. كما ان من طبيعة الحقيقة الا تتجلى الا بتواريها عنا» ـــ المترجم

(7) عند تعرضه لبعض المناهج السوسيولوجية السائدة في الغرب ينتقد الاستاذ عبد الله العروي مفهوم البنية الذهنية وذلك في انتقاده للمنهج السوسيولوجي الانثوغرافي (البنيوي) حيث يرى ان هذا المنهج «الذي يدرس الاعمال الثقافية بتجرد معلن على نحو اشبه بالافتعال انما تستخدم مفهومين اساسيين يتكاملان الى حد ما : مفهوم العقل الموضوعي بالمعنى الذي استخدمه هيجل. ومفهوم البنية الذهنية المقابلة للبنية الاقتصادية ـــ الاجتماعية. لكننا نكتشف، عند اعمال التفكير في ذلك ان مفهوم العقل الموضوعي لايلائم حقا سوى الحضارات الميته او الهاجعة حيث العمل الثقافي الموضوعي مستقل عن النشاط الذي ولده. في هذه الحال، لا تتعارض الثقافة والطبيعة على نحو ما يروق للبعض ان يقول في كثير من الاحيان، بل تكون جوابا للطبيعة في عمل، وتغدو هي ذاتها طبيعة، شيئا بين اشياء اخرى استعدنا منها ارادة الانسان ورغبته، اما مفهوم البنية الذهنية، فهو يمزجه ما بين الدين والفن والحق والفلسفة والادب، انما يجمع في ذاته اغراض النشاط الاجتماعي والوعي الانتقادي (التساؤلي التحليلي) للمجتمع ويؤدي بالتالي الى نتائج متباينة حسب ما اذا كان يجري تطبيقه على مجتمعات الماضي المغلقة، او على مجتمعات الحاضر المتغيرة باستمرار، ولا فعالية لذلك المفهوم الا في المجتمعات المستقرة او التي يجري فيها تطور غير ملحوظ : والنقص المشترك في هذين المفهومين هو عجزهما عن التعبير عن مجتمع يعيش في غليان» ـــ الايديولوجية العربية المعاصرة، المدخل الطبعة العربية، ص 31 و 32.

إن الأستاذ العروي، في هذا النص، يعبر بحق عن الطابع الاجرائي لهذا المفهوم وبالتالي عن الاستخدام المزدوج له، وهكذا فان توظيفه يؤدي بالفعل الى نتائج متباينة ليس فقط بحسب تطبيقه على مجتمعات الماضي المغلقة او مجتمعات الحاضر المتغيرة ـــ حسب تعبير العروي ـــ بل وكذلك ـــ فيما نعتقد ـــ حسب الرؤية او الموقف الايديولوجي الذي يتبناه الباحث الاثنولوجي او الاجتماعي. لذلك لا نشاطر الاستاذ العروي استخلاصه الاخير الذي يرى فيه انه «لا فعالية لذلك المفهوم الا في المجتمعات المستقرة والتي يجري فيها تطور غير ملحوظ» فهذا الاستخلاص يبدو متناقضا مع تاكيد العروي السابق على اجرائية المفهوم وسائر طرق استخدامه. ومن ثم تباين النتائج المترتب عن ذلك. فاذا كان الاستاذ العروي ينتقد هذا المفهوم كما استخدمه شتروس في أبحاثه الانثروبولوجية في (بنيات المجتمعات البدائية المغلقة) وكذا (بنياتها الذهنية الاسطورية)، فانه يكفي ان نشير هنا الى الاستخدام الايجابي والفعال لمفهوم (البنية الذهنية) عند

رواد (البنيوية التكوينية) سواء في اطار (علم النفس التكويني) المتمثل في اهم اعمال جان بياجي، أو في اطار (سوسيولوجيا الادب والفكر) المتمثلة في اهم اعمال الناقد والمفكر الماكسي لوسيان غولدمان ــ وخاصة مؤلفاته المنهجية نذكر من اهمها هنا : (البنيات الذهنية والابداع الثقافي) (الماركسية والعلوم الانسانية) (العلوم الانسانية والفلسفة). المترجم

(8) ليفي شتروس : المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، المجلد 16 عدد 4، 1964.

(9) يقول شتروس : «اننا لا ندعي بيان كيف يتعقل الناس الأساطير، وانما كيف تُدرَك وتُتَعقل الأساطير في اذهان الناس دون وعي منهم» من كتاب (النيء والمطبوخ) ص 20.

(10) ليفي ــ شتروس : الفكر المتوحش، ص 307.

(11) ليفي ــ شتروس : الأنتروبولوجيا البنيوية، ص 28

(12) ليفي ــ شتروس : طوطمية اليوم، ص 131

(13) يقصد فكر الباحث والفكر المدروس ــ المترجم.

(14) رغم ان الاثنولوجيا ــ كما يرى الكاتب ــ تدعي انها تسعى الى التقليل من التعدد الظاهر للبنيات الذهنية في اطار الذهن البشري العام، فان من اهم الأطروحات التي يتمسك بها شتروس هي (تعدد وتنوع الثقافات وتواجدها التزامني (السانكروني) في مرحلة زمنية معينة (هذا يتضمن بالطبع نفيا صريحا لتطورها الجدلي وصيرورتها التاريخية بالمفهوم الماركسي)

(15) ليفي ــ شتروس : الفكر المتوحش، ص 173

(16) ليفي ــ شتروس : الفكر المتوحش، ص 308 ــ 309.

(17) حتى تتبين لنا هذه الخاصية اللانهائية للأسطورة اسوق هذا النص لشتروس يوضح فيه طبيعة هذه الخاصية يقول في (الأنتروبولوجيا البنيوية) : «لنعترف بان دراسة الأساطير تقودنا الى مشاهدات متناقضة. ان كل شيء يمكن ان يحدث في الأسطورة ويبدو ان تتابع الأحداث فيها لا يخضع لاية قاعدة من قواعد المنطق او الاستمرار. كل ذات يمكن ان يحمل عليها اي شيء، وكل علاقة يمكن تصورها محتملة. بيد ان الأساطير الاعتباطية في الظاهر تتكرر بالخصائص ذاتها احيانا في مناطق مختلفة في العالم ومن هنا تطرح هذه القضية : اذا كان محتوى الأسطورة جائز بكامله، فكيف تعلل تشابه الأساطير الى هذا الحد في مختلف ارجاء المعمورة ؟ ان ادراك هذا التناقض الأساسي الذي يتعلق بطبيعة الأسطورة، هو وحده الذي يمكن ان يبعث فينا الأمل في حله» ــ المترجم

(18) ليفي ــ شتروس : النيء والمطبوخ، ص 346

(19) انظر بهذا الصدد خاتمة كتاب (المدارات الحزينة)

(20) ليفي ــ شتروس : من العسل الى الرماد، ص 408

(21) نفس المرجع السابق، ص 408

(22) يلمح الكاتب هنا الى دراسة انجلز المعروفة لهذه الموضوعات والتي التزم في بحثها التحليل المادي التاريخي ــ المترجم.

(23) يقول شتروس بصدد علاقة الاثنولوجيا بالتاريخ : «ان الاثنولوجيا لا يمكن ان تسقط من اعتبارها التطورات التاريخية والتعبيرات الواعية عن الظواهر الاجتماعية، ولكنها وان كانت تعطي لتلك التطورات والتفسيرات نفس الأهمية التي يعطيها اياها المؤرخ فهي تفعل ذلك لكي تتوصل عن طريق نوع من التراجع الى ان تزيل عن تلك التطورات والتعبيرات كل ما تأخذه عن الحدث التاريخي والتامل الفكري» (الأنتروبولوجيا البنيوية) ص 43 من اقتباس المترجم.